طرق الرد إلى الوسطية
بحث في مقاصد الشريعة

إعداد
الدكتور بشير مهدي الكبيسي

كلية الإمام الأعظم

المقدمـــة

الحمد لله و الصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وأصحابه ومـــن اتبـــع هداه.

وبعد فغير خاف على أحد ان هذه الشريعة المباركة جـــاءت فـــي كـــل تشـــريعاتها الابتدائية على الوسط, وهذا ما تكلم فيه كثير من العلماء غير ان بعض النـــاس قـــد ينكر هذا الأمر المعلوم من الدين بالضرورة ومنهم من يفسر الوسطية علـــى هـــواه ومبتغاه, وهذا الأمر الواقع بين الافراط والتفريط عالجته الشريعة الغراء ايضاً بكثير من الآيات والأحاديث لذا أردت الكتابة ليس في الوسطية وانما في طرق الرد اليهـــا من جهتي الإفراط والتفريط, علّ صرخة بوادي الأهواء تدعوهم ان هلم إلى شـــرع الله العادل يسمع لها بعض من تطرف في فهمه للنصوص فيبصر ان الأمة أحوج ما تكون اليوم إلى من يتمسك بحبل الوسط بعد أن أتعبتنـــا الأهـــواء والافتـــراق حـــد الإحتراب.

وكان البحث في مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة, تكلمت في المبحث الأول - عن الوسطية وفي المبحث الثاني, في طرق الرد عليها بطمأنة الوجلين, والثالـــث فـــي طرق الرد اليها بسوق المتهاونين وخاتمة لخص فيها بعض أفكار البحث.

ادعو الله تعالى ان يتقبله مني عملاً صالحاً, ويتقبله الناس فكراً يـــدعو إلـــى الوسطية.

والحمد لله اولاً واخيراً.

المبحث الأول

الوسطيـــــــــة:-

لا أريد الوقوف طويلاً عند الوسطية, إذ أصبحت من المسلمات الشرعية التي كثرت الكتابة عنها, بل عقدت العزم على الكتابة في موضوع يعالج من يخرج عن الوسطية إلى التطرف أو التهاون وكيف نعيده اليها, لذا تستدعي الكتابة في طرق الرد إلى الوسطية, أن نقف هنيهة عند الوسطية نفسها كي يكون البناء في طرق الرد اليها واضحاً. والوسطية عند أهل اللغة تعني العدل, والوسط من كل شئ أعدله[١] .

فما الوسطية التي عنتها الآيات القرآنية والأحاديث النبوية؟

- يجيب على هذا التساؤل الخبر الصحيح الذي يرويه أبو سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال في قوله تعالى(وكذلك جعلناكم امةً وسطاً) (البقرة/١٤٣) وسطاً عدلاً[٢] . وفي قوله تعالى (قال أوسطهم) أي أعدلهم. وهذا ما يتلاقى مع المعنى اللغوي فالعدل - هو الوسط بين طرفي الإفراط والتفريط والعدالة - هي الاستقامة, ولا يكون الشئ مستقيماً إلا إذا تساوى طرفاه, فان رجح أحد الجانبين على الآخر اختلت العدالة. والوسطية هي التجاذب بين الخوف والرجاء حتى لا يتغلب أحدهما على الآخر في نفس المسلم . والوسطية هي الصراط المستقيم الذي تحدث عنه القرآن الكريم بقوله تعالى (وان هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) (الانعام/١٥٣).

إذن فالسبل أما تميل إلى اليسار أو إلى اليمين, ويبقى طريق العدالة والحق هو الوسط وهو الصراط المستقيم, ولا ضير في تشبيه ذلك بأن الوسط هو قمة الجبل وان المنحدرات عن يمينه وشماله هي طرفي الخروج عن الوسطية[٤] .

ولا بد من القول إننا لا نعني بالوسطية هي لسان الميزان الذي يتوسط بين الكفتين, بل هو الطريق الاعدل في الحكم والعمل, وان كان أخف كثيراً من الجانب الآخر والعكس صحيح ايضاً, فالمهم أن يكون الفعل عدلاً يتماشى مع الحق والقدرة على الفعل.

ولا بد أن نبين بعض الأسس التي قامت عليها الوسطية, العدالة المطلقة, في الشريعة الإسلامية فمن ابرز هذه الأسس الأتي:

اولاً:

قابلية الأوامر للتنفيذ, ونعني بذلك عدم التكليف بالمستحيل بل وعدم التكليف بما فيه مشقة كبيرة[٥] وفي هذا المنحى جاءت آيات كثيرة وأحاديث أكثر تدلل عليه فمن القرآن قوله تعالى (وما جعل عليكم في الدين من حرج) (الحج/٧٨).

وقال تعالى (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) (البقرة/١٨٥).

وقال تعالى (يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً) النساء/٢٨.

ومن الاحاديث النبوية الكريمة قوله عليه الصلاة والسلام

(ان هذا الدين متين فأوغل فيه برفق فان المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً ابقى) [٦]

وقال عليه الصلاة والسلام (خذوا من العمل ما تطيقون فوالله لا يسأم الله حتى تسأموا) [٧]. وبنفس السياق جاء قوله عليه الصلاة والسلام (اذا امرتكم بأمرٍ فأتوا منه ما استطعتم) [٨].

وفي الحديث: دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد وحبل ممدود بين سيارتين, فقال: ما هذا؟ قالوا لزينب تصلي فاذا كسلت أو فترت أمسكت به, فقال: حلوه ليصل أحدكم نشاطه فاذا كسل أو فتر فليقعد[٩] .

ولو أردنا أن ننتقل إلى ميدان العمل لوجدنا أن الأعمال التي يقوم بها العبد لربه سهلة قليلة فهذه الصلوات الخمس لا تأخذ من وقت العبد أكثر من ساعة في بعض حالاته فيما ساعات اليوم أربع وعشرون ساعة, بما يعني انه يعمل ساعة واحدة مقابل ثلاث وعشرون ساعة استراحة, والصوم هو شهر واحد من اثني عشر شهراً, والزكاة واحد من كل اربعين, والحج يؤدى مرة واحدة اذا ما توفرت شروطه, وإلا فلا يجب حتى هذه المرة الواحدة والمحرمات شئ ضئيل وقد راعى الشرع في كثير منها بوضع ما يقابلها من الحلال, فالزنا المحرم يقابله الزواج المستحب, والربا الحرام يقابله البيع الحلال, والميتة الحرام يقابلها المذكاة, بل وقد تتحول حرمتها إلى وجوب عند الضرورة.

الثاني ـ اختيار الأيسر ـ كثير من الأعمال يمكن فعلها بصور شتى منها الحالة الشاقة ومنها الحالة الأخف, وهنا نجد الشرع يضيف تخفيفاً آخر إلى ما سبق ذكره في الفقرة الاولى آنفاً. وهذا التخفيف يعني ان لا نأخذ بأشق الممكن, وإنما بالأخف منه, وهو ما أثبته الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم برواية ام المؤمنين عائشة رضي الله عنها (ما خيّر رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا اختار ايسرهما ما لم يكن إثماً) [١٠].

ومن باب اختيار الأيسر, ما أعطته الشريعة من حرية الاختيار بين عدة امور يعود إلى المكلف اختيار واحد منها من ذلك قوله تعالى (لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقّدتم الايمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم) (المائدة/ ٩٠).

ومنها قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمداً فجزاءٌ مثلُ ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هدياً بالغ الكعبةِ أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياماً) (المائدة/ ٩٥).

ومنها قوله تعالى (فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ففدية من صيامٍ أو صدقةٍ أو نسك) (البقرة/ ١٩٦).

وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مخاطباً أحد أصحابه قائلاً (لعلك آذاك هوامك؟) قال نعم يا رسول الله فقال صلى الله عليه وسلم أحلق رأسك وصم ثلاثة أيام أو أطعم ستة مساكين أو إنسك بشاة[١١] .

الثالث ـ إسقاط ما فيه عسر: فقد جاءت كثير من الأحكام بدائل عن أحكام أخرى بسبب المشقة التي تعتري المسلم في بعض أحواله, لو استمر على تنفيذ الحكم الأول, وليس خافٍ على أحد ما بوب له الاصوليون تحت عنوان العزيمة والرخصة, فسقط الصوم عن المريض والمسافر في وقته المقرر له, وان كان المريض عاجزاً تحول الصيام في حقه إلى بذل المال بديلاً, وتتقلص الصلاة الرباعية في السفر إلى النصف رفقاً للمشقة, وابيح الحرام للمضطر في قول كلمة الكفر وغير ذلك كثير, وما ذلك إلا من أجل الموازنة بين الفعل وحال وقوعه, فحين يجيئ في الوقت الشاق يتحول

إلى الفعل الأخف لنصل إلى العدل والوسطية واذا كان الحال اعتيادياً يكون الفعل بالحكم الاعتيادي حيث تساوت القوتان قوة الحال وقوة الحكم, وهكذا دواليك في كل احكام الشريعة, وهنا أود أن أقتبس من الامام الشاطبي [١٢] رحمه الله تعالى في الموافقات حيث يقول (والشريعة جارية في التكليف بمقتضاها على الطريق الوسط الأعدل الآخذ من الطرفين بقسط لا ميل فيه, الداخل تحت كسب العبد من غير مشقة عليه ولا انحلال بل هو تكليف جار على موازنة تقتضي في جميع المكلفين غاية الاعتدال كتكاليف الصلاة والصيام والحج والجهاد والزكاة وغير ذلك) [١٣] .

ويقول ابن العربي[١٤] في أحكام القرآن (.. ان القوم يعني - المجتهدين - لم يخرج اجتهادهم عن سبيل الدلالات في مقصود الشريعة ولا جاوزوا طرفيها إلى الافراط, فان للشريعة طرفين في العبادات فمن احتاط استوفى الكل ومن خفف أخذ بالبعض) [١٥].

ووسطية الشريعة شاملة للأوامر والنواهي والأفراح والأحزان وحتى العوائد, بما يعني انها شملت كل ما يفعله الإنسان سواء كان تحت الأمر الشرعي أو الإباحة ولو أخذنا أي مثال لوجدناه جلياً واضحاً ولنأخذ من الأوامر فعل الصلاة فإذ نأتي لاقامتها ونطلع على كنهها وشروطها فسنجد انها كلها تحت قدرة المكلف وانها لا تميل إلى أية جهة من جهتي الإفراط والتفريط, بدلالة ان معاذ بن جبل رضي الله عنه لما كان يطيل الصلاة في قومه فشكاه بعضهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم غضب النبي عليه الصلاة والسلام وقال أفتانٌ أنتَ يا معاذ؟ [١٦]. إذ الوسطية لمن يصلي إماماً بجماعة أن يراعي أحوالهم الصحية والاجتماعية, فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (إني لأقوم في الصلاة أريد أن أطول فيها فاسمع بكاء الصبي, فاتجوز في صلاتي كراهية أن أشق على أمه) [١٧].

لكن هذه الوسطية قد يتجاوز حدودها بعض الناس أما إلى جهة الإفراط بالتشديد على أنفسهم أو جانب التفريط بالتهاون في الواجبات والمأمورات, ترى ما موقف الشريعة من هؤلاء وهؤلاء؟ يقول الامام الشاطبي رحمه الله رداً على هذا التساؤل (فان كان التشريع لأجل انحراف المكلف أو وجود مظنة انحرافه عن الوسط إلى أحد الطرفين كان التشريع راداً إلى الوسط الاعدل, لكن على وجه يميل فيه إلى

الجانب الآخر ليحصل الاعتدال فيه, فعل الطبيب الرفيق يحمل المريض على ما فيه صلاحه) [١٨] بما يعني ان الشارع حين يرى العبد منحرفاً إلى جهة الخوف الزائد يعالج هذه الحالة ببذل الأمن المفتوح, وإذا ما رآه منحرفاً إلى جهة التفريط وعدم الاكتراث لما تطلبه الشريعة نجده متشدداً جداً في تشريعاته لهدف إعادة هذا المتهاون إلى صوابه والطريق الأوسط السديد, وهنا قد يرد سؤال خطر ومخيف, هل ان الشارع في مثل هذه الحالات يقف معانداً للعبيد, كما نلاحظ عند بعض الناس من حب إظهار الخلاف للآخرين في حالة النقاش والحوار؟! والجواب - ان الأمر مع التشريع مختلف جداً ذلك أن التشريع مأمون الجانب, فالمشرع هو النبي المعصوم صلى الله عليه وسلم وحين نتابع التشريعات التي جاء بها تعطينا الاطمئنان التام على ان جانب المعاندة والمكابرة معدومة بالكلية بدلالة الأحاديث الكثيرة جداً الموافقة على فعل الصحابة وسنذكر أمثلة منها, وقبل ذلك قد يلمز بعضهم ببعض الحوادث التي وقعت في عهد النبي عليه الصلاة والسلام من ذلك: ان النبي عليه السلام اشتكى اليه صحابي مما فعله الزبير حيث أخذ الماء لبستانه, فقال النبي عليه السلام للزبير اسق يازبير ثم ارسل الماء إلى جارك فغضب الصحابي من هذا وقال: يا رسول الله ان كان ابن عمتك[١٩] ؟ أي أعطيته حق السبق في السقي لأنه ابن عمتك, فغضب النبي صلى الله عليه وسلم وقال اسق يا زبير حتى يبلغ الجدر ثم أرسله إلى جارك وظاهر هذا ان النبي عليه الصلاة والسلام وتحت تأثير الغضب قد غير الحكم الذي أصدره اولاً.

والجواب عن هذا ما قاله شراح الحديث[٢٠], وهو ان النبي صلى الله عليه وسلم تدخل أول الأمر لحل المشكلة حلاً وسطاُ ليشفع للأنصاري عند الزبير بأن يأخذ قسطاً من الماء وليس كل استحقاقه ثم يصرف الماء إلى جاره, لكن لما ظهر من جاره عدم الرضا من هذا عاد الرسول صلى الله عليه وسلم ليعطي الحق كاملاً وكما هو للزبير, ان يسقي بستانه حتى يصل الماء الجدر [٢١] . وهو المتعارف عليه عندهم في السقي, ونلاحظ هنا ان النبي صلى الله عليه وسلم شدد على الصحابي عندما جمح به لسانه ليعيده إلى جانب الأمر الشرعي, وهو عدم معاندة

الرسول عليه السلام (ما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله امراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم).

والأمر الثاني ان النبي صلى الله عليه وسلم لم يحرم هذا الصحابي حقه في السقي مع ما بدر منه من عتاب حيث أمر الزبير بعد استيفائه حقه ان يرسل الماء إلى بستان الانصاري, ونلاحظ أدب الانصاري مع عتابه انه يخاطب النبي قائلاً يا رسول الله, بما يعني انه لم يخرج عن الأدب معه بل حمله الموقف إلى العتاب فقط.

ومما يدلل على ان الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم لا ينساق مع الهوى والعناد اننا نجده عليه السلام كثيراً ما يوافق على ما يفعله الصحابة الكرام حتى جعلوا هذه الموافقة جزءً من تعريف السنة النبوية [٢٢]. والمتتبع لتقريرات الرسول عليه السلام يجد أكثرها موافق لفعل الصحابة وليس مخالفاً إلا إذا خرجوا عن طريق الحق, فحين قتل اسامة بن زيد المشرك الذي قال لا إله إلا الله, غضب النبي عليه الصلاة والسلام غضباً شديداً [٢٣], وحين أطال معاذ الصلاة في الجماعة غضب ايضاً ورفض فعله [٢٤], ولكننا في مقابل هذا نجده عليه السلام أقر الكثير الكثير من فعل الصحابة, كما فعل مع عمرو بن العاص حين نهى سريته عن اشعال النار ومتابعة العدو وصلى الفجر بالتيمم مع وجود الماء[٢٥], وكما فعل مع الذين ذهبوا إلى سيف البحر فاكلوا من الحوت الكبير الذي وجدوه ميتاً [٢٦], وكما فعل مع من لم يصلي العصر في الطريق ومع من صلاها في الطريق في قصة بني قريضة حين قال عليه السلام (لا يصلين احدكم العصر إلا في بني قريضة)[٢٧], وغير ذلك كثير مما يثلج الصدر ان المشرع حين يناقض فعل أحدهم لا ينبعث عن هوى وغرض بل عن حكمة شرعية تتماشى مع المصلحة والمقصد الشرعي تحميها وتحرسها العصمة الالهية للنبي صلى الله عليه وسلم, يدلل على ذلك ما ورد عن عبد الله بن عمرو بن العاص, رضي الله عنهما انه قال كنت اكتب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كلما يقول فنهاني قومي وقالوا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في الرضا والغضب, بما يعني لعله في لحظات الغضب يخرج عن مألوفه في الاحكام, فأوصل عبد الله بن عمرو بن العاص ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له اكتب - أي في حالتي الرضا والغضب - فوالله لا يخرج إلا حقاً وأشار إلى فمه الشريف صلى الله عليه وسلم [٢٨].

هوامش المبحث الأول

(١) الفيروزابادي - القاموس المحيط ٤٠٥/٢.

(٢) المصدر السابق وانظر تفسير ابن كثير ١٩٠/١, الشوكاني فتح القدير ١٧٢/١.

(٣)

(٤) حبنكة - عبد الرحمن - الوسطية في الاسلام, ١٣.

(٥) الفتوحي - ابن النجار, شرح الكوكب المنير ٤٨٥/١, الباحسين رفع الحرج ١٥٦ وما بعدها.

(٦) البيهقي - السنن الكبرى ١٨/٣-١٩, مجمع الزوائد ٦٢/١ وقال رواه أحمد ورجاله موثوقون, وانظر ابن حجر, فتح الباري ٢٩٧/١١.

(٧) البخاري - ٦٩٥/٢, مسلم ٥٤٠/١, البيهقي ١٧/٣ ابن خزيمة ٢٨٣/٣, مصنف ابن ابي شيبة ٣٣١/٢.

(٨) البخاري ٢٦٥٨/٦, مسلم ٩٧٥/٢, البيهقي ٢٥٣/٤.

(٩) مسلم ٥٤١/١, البيهقي ١٨/٣-١٩ ابن خزيمة ٢٠٠/٢ ابن حبان ٢٤٠/٦, النسائي ٢١٨/٣.

(١٠) البخاري ١٣٠٦/٣, مسلم ١٨١٣/٤, ابو داود ٢٥٠/٤.

(١١) البخاري ٦٤٥/٢, مسلم ٨٦١/٢, الترمذي ٢٨٨/٣.

(١٢) الامام الشاطبي-هو ابو اسحاق ابراهيم بن موسى الغرناطي الشاطبي-صاحب الموافقات والاعتصام مالكي المذهب ت.٧٩٠هـ انظر ترجمة في اطروحة الماجستير الشاطبي ومنهجه في مقاصد الشريعة.

(١٣) الموافقات ١٦٣/٢.

(١٤) ابن العربي - هو محمد بن عبد الله بن محمد المعافري الاشبيلي المالكي ولد ٤٦٨ و ت ٥٤٣. انظر اصول الفقه تاريخه ورجاله د.شعبان محمد اسماعيل.

(١٥) احكام القرآن ٥٦٨/٢.

(١٦) البخاري ٢٢٦٤/٥, مسلم ٣٣٩/١, مسند الشافعي ٥٦/١ ابو داود ٢١٠/١ ابن حبان ١٤٨/٥.

(١٧) البخاري ٢٥٠/١, ابو داود ٢٠٩/١. مصنف ابن أبي شيبة ٤٠٧/١, البيهقي ١١٨/٣. ابن ماجه ٣١٦/١, مسند أبي عوانة ٤٢١/١, نيل الاوطار ١٦٧/٣.

(١٨) الموافقات ١٦٣/٢.

(١٩) البخاري ٩٦٤/٢, مسلم ١٨٢٩/٤, الترمذي ٢٣٨/٥, البيهقي ١٥٣/٦.

(٢٠) ابن حجر فتح الباري.

(٢١) المصادر السابقة في (١٩).

(٢٢) التقرير - ان يفعل الصحابي شيئاً بحضرة النبي عليه السلام أو بغيبته ثم يعلم به النبي عليه السلام فلا ينكره, انظر الزركشي البحر المحيط ٢١١/٤ وما بعدها.

(٢٣) البخاري ١٥٥٥/٤, مسلم ٩٧/١.

(٢٤) سبق تخريجه رقم (١٦).

(٢٥) البخاري ١٣٢/١ تعليقاً, قال ابن حجر وصله أبو داود والحاكم.

(٢٦) البخاري ١٥٨٥/٤, مسلم ١٥٣٥/٣ مصنف عبد الرزاق ٥٠٧/٤.

(٢٧) البخاري ٣٢١/١ و ١٥١٠/٤, نيل الاوطار ١١/٤.

(٢٨) مسند أحمد ١٩٣/٢, مصنف ابن ابي شيبة ٣١٣/٥ عون المعبود ٥٧/١٠ ابن خزيمة ٢٦/٤.

المبحث الثاني

طريق الرد إلى الوسطية بطمأنة الوجلين:

قلنا ان الوسطية في كل الأعمال التي ينبغي للمسلم القيام بها مطلوبة التحقيق, لكن ما العمل اذا ما وجدنا بعضاً من المسلمين يجمح به الفكر ناحية الخوف والقنوط؟

لقد أمسك الشرع, بلجام الجماح هذا ليعيده إلى الوسطية التي يريد للناس ان يسيروا عليها, حيث يقول الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم (جئتكم بالحنفية السمحة ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك)[١] وقد وردت آيات كثيرة تدعوا الناس إلى عدم الخوف والابتعاد عن القنوط, والرسول الكريم صلى الله عليه وسلم أحرص الناس على امته وأخوفهم من هلاكها لذا جاءت أحاديثه تقف بقوة أمام هذا الجموح الخائف ولنصغ إلى قوله تعالى (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم) (الزمر/ ٥٣).

نقل المفسرون إن سبب نزول هذه الآية ما ورد عن ابن عمر رضي الله عنه قال: كنا نقول ما للمفتتن توبة إذا ترك دينه بعد إسلامه ومعرفته, فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة نزل فيهم (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم..)[٢] وفي البخاري[٣] ومسلم[٤] عن ابن عباس رضي الله عنهما إن أناساً من أهل الشرك قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا ثم أتوا محمداً صلى الله عليه وسلم فقالوا: إن الذي تقول وتدعو اليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة فنزلت (والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً. يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً. إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فاولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً) (الفرقان/٦٨/٧٠).

ونزل (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم) (الزمر/ ٥٣). وفي هذه الآية ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله (ما أحب ان لي الدنيا وما فيها بهذه الآية (قل

يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله..) فقال رجل: يا رسول الله فمن أشرك؟ فسكت النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال: الا ومن أشرك ثلاث مرات[٥أ] .

والقنوط الوارد في الآية يراد به أن يعتقد ان الله تعالى لا يغفر له, أما كونه إذا تاب لا تقبل توبته وتغفر ذنوبه, وأما بأن يقول: نفسه لا تطاوعه على التوبة, بل هو مغلوب على أمره, استحوذ عليه الشيطان[٥ب] . وعلى أية حال فإن القرآن الكريم نهى عن القنوط مطلقاً وإن باب التوبة مفتوح مهما عظم الذنب, يقول الإمام الشوكاني رحمه الله (إن هذه الآية أرجى آية في كتاب الله سبحانه لاشتمالها على أعظم بشارة, فإنه أولاً أضاف العباد إلى نفسه لقصد تشريفهم ومزيد تبشيرهم, ثم وصفهم بالإسراف في المعاصي والاستكثار. من الذنوب, ثم عقب ذلك بالنهي عن القنوط من الرحمة لهؤلاء المستكثرين من الذنوب, فالنهي عن القنوط للمذنبين غير المسرفين من باب أولى وبفحوى الخطاب, ثم جاء بما لا يبقى بعده شك ولا يتخالج القلب عند سماعه ظن فقال (ان الله يغفر الذنوب جميعا..) فيالها من بشارة ترتاح لها قلوب المؤمنين المحسنين ظنهم بربهم الصادق في رجائه الخالعين لثياب القنوط الرافضين لسوء الظن بمن يتعاظمه ذنب, ولا يبخل بمغفرته ورحمته على عباده المتوجهين اليه في طلب العفو, الملتجئين به في مغفرة ذنوبهم. فمن أبى هذا التفضل العظيم والعطاء الجسيم وظن ان تقنيط عباد الله وتأييسهم من رحمته أولى بهم مما بشرهم الله به فقد ركب اعظم الشطط وغلط أقبح الغلط..[٦] .

ومن أدلة الرد إلى الوسطية قصة الثلاثة الذين جاؤوا إلى بيوت النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادته فلما عرفوها كأنهم تقالوها فقالوا أين نحن من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد غفر له من ذنبه ما تقدم وما تأخر فقال أحدهم أما أنا فاصلي ولا أنام وقال الآخر أما أنا فأصوم ولا أفطر وقال الثالث أما أنا فاعتزل النساء فلا أتزوج, فلما وصل خبرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم أنتم الذين قلتم كذا وكذا قالوا نعم يا رسول الله قال: (أما والله اني لأتقاكم لله واخشاكم له لكني اصلي وأنام وأصوم وأفطر واتزوج النساء فمن رغب عن سفينتي فليس مني)[٧] فهؤلاء الصحابة الكرام تخيلوا فاصلاً كبيراً يحول بينهم وبين رسول

الله صلى الله عليه وسلم فكان الرد منه عليه السلام شديد اللهجة ليعرف الجميع ان فعل الرسول عليه السلام هو الأسوة الحسنة, وانتقل إلى شواهد اخرى تدلل على طرق الرد إلى الوسطية وسأختار أمثلة فيها بعض الغرابة والمرح والترفيه لما نراه اليوم من تعسف عند كثير من شباب الأمة فيها والخروج إلى الجانب الآخر (الإفراط) حولها ومنها:

المزاح:

من مألوفات الجاهلية المزاح فلما جاء الإسلام ظن المسلمون ان هذا مما ينبغي ان يجعلوه خلف أظهرهم إذ هو مظهر من مظاهر الجاهلية لكنهم فوجئوا برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يمزح مع نسائهم وأطفالهم وشيوخهم فأثار هذا المزح استغرابهم حتى وجهوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم سؤالاً فيه الغرابة بادية, أتمزح يا رسول الله؟ فقال عليه الصلاة والسلام (أمزح ولا أقول إلا حقاً)[٨] وإذا ما تابعنا مزاح الرسول عليه الصلاة والسلام مع أصحابه لوجدناه لا يخرج عن الحق ابداً ومن معروف مزاحه عليه السلام قوله لعمته صفية وقد طلبت منه أن يدعوا لها بدخول الجنة فقال (لا تدخل الجنة عجوز) فلما رآها جزعت ولم تنتبه إلى جانب المزاح قال لها انك تعودين إلى الشباب في الجنة, ان الله تعالى يقول (إنا أنشأناهن إنشاءا فجعلناهن أبكارا عرباً أتراباً)[٩] (الواقعة/٣٥-٣٧).

وكان زهير بن حرام الأشجعي يمزح مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ويهاديه بمستطرف البادية, ويهاديه الرسول عليه السلام بموجودات الحاضرة, وكان يقول زهير باديتنا ونحن حاضرته, وكان الرسول عليه السلام يمازحه ويحبه فلقيه ذات مرةٍ في السوق فجاءه من عند ظهره واحتضنه من خلفه وزهير لا يبصره فقال: أرسلني مَن هذا؟ فلما عرف أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل يلصق ظهره بصدر رسول الله عليه السلام تبركاً, فجعل الرسول عليه السلام يقول مازحاً مَن يشتري العبد؟ فقال زهير يا رسول الله إذن تجدني كاسداً فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنت عند الله غالٍ[١٠] . بعد هذا عاد المزاح إلى مجالس صحابته الكرام وهنا نتساءل هل هذا الشرط - اعني لا أقول إلا حقاً - خاص بمزاح النبي صلى الله عليه وسلم أم إنه عام للأمة كلها؟ وما يدعوني لوضع هذا التساؤل ما وجدته من مزاح لبعض أصحابه - صلى الله عليه وسلم - غير مقيد بهذا القيد, ومن ذلك ما فعله (سويبط بن حرملة) بنعيمان بن عمرو في رحلتهما التجارية مع أبي

بكر الصديق رضي الله عنهم جميعاً إلى بصرى فقد كان نعيمان مسؤولاً عن الزاد, فجاءه سويبط وهو المشهور بمزاحه - وقال له اطعمني فقال نعيمان: لا حتى يأتي أبو بكر, فقال سويبط: لأغيضنك فذهب إلى ناس فقال لهم: تشترون مني عبداً لي؟ قالوا نعم, قال انه عبد له كلام وهو قائل لكم لست بعبده أنا حر, فان كان اذا قال لكم هذا تركتموه, فلا تشتروه ولا تفسدوا عليّ عبدي, قالوا بل نشتريه ولا تنظر في قوله, فاشتروه منه بعشر قلائص فاقبل يسوقها وأقبل القوم حتى عقلها, وقال: دونكم هو هذا فجاء القوم اليه, وقالوا اشتريناك, فقال هو كاذب أنا رجل حر, قالوا: قد أخبرنا خبرك, فطرحوا الحبل في عنقه وذهبوا به ولم يسمعوا لكلامه فجاء أبو بكر رضي الله عنه فأخبر خبره فذهب هو وأصحابه واتبعوا القوم واخبروهم انه يمزح معهم وردوا عليه القلائص وأخذوا نعيمان منهم فلما قدموا المدينة اخبروا رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر فضحك من ذلك صلى الله عليه وسلم حولاً كاملاً, وتشير بعض الروايات انهم ضحكوا من ذلك حتى وفاة النبي صلى الله عليه وسلم[١١] مما يدل ان المزح لم ينقطع في حياته عليه السلام, ولهذا الصحابي الجليل نعيمان قصص كثيرة في المزاح لا يخلوا اغلبها من مجانبة صريح الحق ولعل ما يعفيه من ذلك ان نهاية الأمر تكون بابتسامة على الوجوه تزيل تعب الجد الملازم لاولئك العظام رضي الله عنهم, وما يعنينا ان الرسول عليه السلام عندما رأى الناس اعرضوا عن المزاح وفيه فرصة للراحة والاستجمام أعادهم اليه في وسطية عدم الخروج عن الحق فيه.

ومثال آخر نضربه للرد إلى الوسطية وهذه المرة عن الغناء فالمتتبع لما يفعله بعض شبابنا المتحمس لدينه في الوقت الحاظر يقف عن كثب على تشددهم في هذا الباب فهم يرفضون الغناء والموسيقى جملة وتفصيلاً ويروون من الأحاديث في ذلك منها (من استمع إلى اغنية حرام صب في اذنيه الانك - الرصاص - يوم القيامة)[١٢] , ولعلهم شددوا النكير في هذا الباب رداً على ما يقوم به الطرف المفرط في دينه حيث الملاهي والمراقص وقنوات تلفازية لا حصر لها تقدم للناس وخاصة الشباب كل التهتك والابتذال والدعوة إلى خلع الدين والحياء والإغراق في الملذات الدنيوية وهذا في الجملة يشبه ما كان عليه الأمر في الجاهلية, اذ بعث صلى الله

عليه وسلم والعرب يطربهم الغناء ويعجبهم اللهو, واشعارهم طافحة بهذا, ولعل قول ابي جهل عندما توجهوا لمقاتلة النبي صلى الله عليه وسلم في بدر, مشهورة معروفة, عندما طلب منه قومه ان يكف عن مواصلة السير بعد أن نجت قافلة ابي سفيان حيث قال (لا نرجع حتى نحضر بدراً فنقيم عليه ثلاثاً ننحر الجزر ونطعم الطعام ونسقي الخمر وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب..)[١٣] فالغناء عندهم مشتهر لا يستغنون عنه وعندما جاء الإسلام خال الصحابة الكرام رضي الله عنهم ان الغناء جزء لا يتجزأ من الجاهلية يجب عليهم العزوف عنه, وهو ما حصل لكن الرسول الاعظم صلى الله عليه وسلم جاء بما يردهم إلى الوسطية في هذا الأمر ايضاً فعن ام المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت (دخل عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وعندي جاريتان تغنيان بغناء بعاث[١٤] فاضطجع على الفراش وحول وجهه ودخل ابو بكر فانتهرني وقال مزمارة الشيطان عند النبي صلى الله عليه وسلم؟ فاقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال(دعهما, فلما غفل غمزتهما فخرجتا)[١٥] .

وأكثر من هذا ان عائشة رضي الله عنها زفت امرأة إلى رجل من الأنصار فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم (يا عائشة اما كان معكم لهو؟ فان الأنصار يعجبهم اللهو) وفي رواية فهل بعثتم معها جارية تضرب بالدف وتغني فقالت تقول ماذا؟ فقال تقول:

اتيناكم اتيناكم فحيانا وحياكم

ولولا الذهب الاحمر ما حلت بواديكم

ولولا الحنطة السمرا ما سمنت جواريكم[١٦]

وهذا النوع من الغناء العف البرئ هو الذي يريده الرسول عليه السلام فاذا خرج عن هذا صحح لهم الانحراف, فحين غنت جارية وقالت في غنائها وفينا نبي يعلم ما في غد! قال لها عليه السلام (دعي هذه وقولي بالذي كنت تقولين) وفي رواية لا يعلم ما في غدٍ إلا الله.[١٧] فرفض الغلو وطلب منها العودة إلى الوسط.

ولنذهب إلى مثال آخر وأخير واعني به (الشعر):

فمن عوائد العرب انها تحفل بنبوغ شاعر عندهم وتقيم المآدب وتعلن الافتخار[١٨], والشعر لا يكون نافقاً ان لم تكن عليه مسحة من كذب, لذلك قال تعالى (والشعراء يتبعهم الغاوون الم تر انهم في كلِ وادٍ يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون) (الشعراء/٢٢٤).

وعندما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة المنورة, تخيل بعض أهلها ان الإسلام قد سد عليهم نافذة الشعر الذي كانوا يحرصون عليه حتى كاد الشعر ان يتوقف وكادت الأعراس لا تفترق عن المآتم, ومن بقي يقول الشعر انخفض الحس في شعره حد الاسفاف, وقد وجه إلى الشاعر الإسلامي المشهور عبد الله بن رواحة رضي الله عنه سؤالاً ما بال شعرك في الجاهلية أحسن منه في الاسلام؟ فيجيب: ان الشعر لا يتماشى إلا مع الكذب وقد حرم الإسلام الكذب[١٩] , هذا الانهيار الذي كاد أن يطيح بالشعر الإسلامي, تداركه الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم حين طلب من حسان بن ثابت رضي الله عنه ان يدافع عن الإسلام بشعره فقال (اهجهم وروح القدس معك)[٢٠] وكان عبد الله بن رواحة ينشد الشعر بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمر يا ابن رواحة بين يدي رسول الله وفي حرم الله تقول الشعر؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم خلّ عنه يا عمر, فلهي اسرع فيهم من نضح النبل)[٢١] هذه الأقوال فتحت للشعر ابواباً مشرعة, فاذ يجيز النبي صلى الله عليه وسلم الهجاء فباقي أنواع الشعر اولى بالجواز, بل حتى الغزل سمعه النبي صلى الله عليه وسلم ولم يعترض عليه بل أكرم المنشد في الحادثة المشهورة لكعب بن زهير بن أبي سلمى حين انشده القصيدة المعروفة:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيمٌ أثرها لم يفد مكبول[٢٢]

وهو صلى الله عليه وسلم القائل (ان من الشعر لحكمة) غير ان الفتح لابواب الشعر مقيد بنوع من الصدق في أي شكل من أشكاله بدلالة مقولة الرسل عليه السلام السابقة (ان من الشعر لحكمة) قالها عندما امتدح شاعر زعيماً من زعمائهم لكن هذا الزعيم لم يكتف بهذا المدح حيث يرى لنفسه مكانة اعلى مما ذكرها الشاعر المادح فانقلب الشاعر إلى هجاء الزعيم فابان مثالب الرجل حتى غضب النبي عليه السلام فقال يا رسول الله لم أكذب في الاولى ولا في الثانية حيث

ارضاني فقلت افضل ما فيه واغضبني فقلت اسوأ ما فيه, فسر النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الجواب وعقب عليه بقوله (ان من البيان لسحرا وان من الشعر لحكمة)[٢٣] .

وفي هذا السياق - اعني سياق تقييد الشعر ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لحسان بن ثابت رضي الله عنه كيف تهجهم وأنا منهم - قريش - فاجاب حسان أخرجك منهم كما تسل الشعرة من العجين[٢٤] , ومهما يكن فان الإسلام هذب الشعر من كثير من شوائب الجاهلية لكنه لم يغلق أبوابه.

هوامش المبحث الثاني

(١) مجمع الزوائد ٣٠٢/٤.

(٢) ابن كثير ٥٩/٤ الشوكاني فتح القدير ٥٠٥/٤ السيوطي - اسباب النزول ٦١٤.

(٣) البخاري ١٨١١/٤.

(٤) مسلم ١١٣/١.

(٥) مسند أحمد ٣٧٥/٥.

(٥ ب) ابن تيمية - مجموع الفتاوى ٩/١٦.

(٦) الشوكاني فتح القدير ٥٠٦/٤.

(٧) البخاري ١٩٤٩/٥, مسلم ١٠٢٠/٢, مصنف عبد الرزاق ١٦٧/٦.

(٨) الترمذي ٣٥٧/٤, سنن البيهقي ٢٤٨/١٠, مجمع الزوائد واللفظ له وقال رواه الطبراني في الصغير واسناده حسن.

(٩) مجمع الزوائد ٤١٩/١٠ وقال الطبراني في الأوسط وهو ضعيف.

(١٠) ابو داود ٣٠٠/٤ الترمذي ٣٧٥/٤ وقال حسن صحيح, مسند أحمد ١٦١/٣.

(١١) ابن ماجه ١٢٢٥/٢, مصباح الزجاجة ١١٤/٤.

(١٢) هذا الحديث لم أجده بهذا اللفظ بل من استمع إلى قوم وهم له كارهون صب في اذنيه الأنك. وهو بعيد عن مرادنا. انظر صحيح ابن حبان ٤٩٨/٢, تحفة الاحوذي ٣٥٣/٥.

(١٣) السيرة الحلبية ١٦٣/٢.

(١٤) بعاث - بضم الباء وفتح العين, مكان قريب من المدينة - المنورة قرب بني قريضة اقتتل فيه الأوس والخزرج قبل مقدم النبي عليه السلام بخمس سنين. ابن حجر فتح الباري ١١١/٧, السيرة الحلبية ٦/٢-٧.

(١٥) البخاري ٣٢٣/١, مسلم ٦٠٩/٢.

(١٦) البخاري ٢٢٦/٩ مع الفتح, النسائي ٣٣٢/٣ البيهقي ٢٨٩/٧ ابن ماجة ٦١٢/١.

(١٧) سنن البيهقي ٢٨٩/٧ وقال مرسل جيد, وفيه اهدى لها زوجها اكبش يبحبحن في المربد. وزوجها في النادي يعلم ما في غد فقال صلى الله عليه وسلم سبحان الله لا يعلم ما في غدٍ إلا الله, لا تقولوا هكذا وقولوا اتيناكم اتيناكم...

(١٨) شوقي ضيف العصر الجاهلي, ٤٤٥.

(١٩)

(٢٠) مسلم ١٩٢٢/٤, شرح معاني الآثار ٢٩٧/٤.

(٢١) الترمذي ١٣٩/٥.

(٢٢) سنن البيهقي ٢٤٣/١٠, المستدرك ٦٧٣/٣ تحفة الأحوذي ٢٣٣/٢ قال العراقي قد رويناها من طرق لا يصح منها شئ وذكرها أبن اسحاق بسند منقطع, نيل الاوطار ١٦٨/٢.

(٢٣) سنن الترمذي ١٣٨/٥, ٣٧٦/٤. عون المعبود ٢٤٠/١٣, مصنف ابن ابي شيبة ٢٧٢/٥.

(٢٤) راجع المصدر رقم (٢٠).

المبحث الثالث

طريقة الرد إلى الوسطية بسوق المتهاونين:

ينساق الكثير من الناس ولاسباب مختلفة إلى التهاون في أداء الواجبات, فمنهم من يتكل على الرحمة الواسعة لله تعالى متكئين إلى آيات وأحاديث تشير إلى عظيم رحمة الله. الم يقل الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم (ان لله مائة رحمة انزل واحدة بها يتراحم الناس وابقى تسعاً وتسعين ليوم القيامة)[١] كما انه صلى الله عليه وسلم خاطب الصحابة الكرام رضي الله عنهم حين رأى امرأة حانية على ولدها حريصة عليه فقال صلى الله عليه وسلم أترون هذه ملقية ابنها في النار؟ قالوا لا يا رسول الله,(قال فان الله ارحم بعباده من هذه بولدها)[٢] فينفتح أمامهم الأمل المطلق برحمة الله حتى تنسيهم ان الله قد خلق ناراً إلى جانب خلقه للجنة.

وآخرون شغلتهم أموالهم وأهلوهم عن ذكر الله وعما يجب من حق له عليهم, فلا يقومون إلى الصلاة إلا وهم كسالى وآخرون نسوا الله فانساهم أنفسهم وضلوا الطريق فهم يتخبطون بعماية لا وضوح فيها, وكل هؤلاء بحاجة إلى تنبيه حازم يوقظهم من رقدتهم, ويذكرهم بان مع الجنة ناراً وان مع المغفرة عقاباً وان التهاون قد يغضب الرب فيحبط العمل, ولهذه الأسباب وغيرها جاء النذير العريان والتحذير العنيف مع مد يد الخلاص لمن يريد, وقد ورد في القرآن الكريم كثير من الآيات تتوعد هؤلاء اللاهثون العابثون, منها قوله تعالى (فان اعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) (فصلت ١٣). ويقول تعالى (واما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فاولئك في العذاب محضرون) (الروم ١٦). وقال تعالى (ومن اظلم ممن افترى على الله كذباً وكذب بالحق لما جاءه أليس في جهنم مثوىً للكافرين) (العنكبوت ٦٨). بل ان آيات الإنذار تكاد تعانق آيات الرحمة في كثير من المواطن.

وفي أحاديث الرسول الاعظم صلى الله عليه وسلم جملة كبيرة موجهة لمثل هؤلاء الناس على اننا لا نغفل ان لو قمنا باحصاء آيات وأحاديث الرجاء وآيات

وأحاديث الخوف لوجدنا جانب الرجاء هو الراجح وقد كان حرص النبي عليه السلام على ايمان من ارسل اليهم كبيراً جداً وهو القائل (بشروا ولا تنفروا) [٣] ولكن البحث يقتضي منا سوق أمثلة للتخويف ولعل في ذكرها ونتائجها ترجع إلى التبشير واخرت هذا البحث عما سبقه كي يكون الأمل مغروساً في النفس فلا يخرجها الخوف عن الأمل الكبير.

ومن الأدلة على ان الشريعة جاءت ترد الناس إلى الوسطية والى الصراط المستقيم ما رواه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت(وأنذر عشيرتك الأقربين) (الشعراء ٢١٤). صعد النبي صلى الله عليه وسلم على الصفا فجعل ينادي يا بني فهر, يا بني عدي, لبطون من قريش حتى اجتمعوا فجعل الرجل اذا لم يستطع أن يخرج ارسل رسولاً لينظر ما هو, فجاء أبو لهب وقريش فقال أرأيتكم لو أخبرتكم ان خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقيّ؟
قالوا: نعم ما جربنا عليك إلا صدقاً, قال فاني نذير لكم بين يدي عذاب شديد, فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم الهذا جمعتنا؟. فنزلت (تبت يدا أبي لهب وتب) (المسد/١)[٤]

نلاحظ في النص النبوي ان قريشاً لما كانت متهاونة في الاستجابة لدعوته رافضة أتباعه وهو الحريص على ذلك راح يدعوهم بأشد أنواع التهديد والانذار عساهم يثوبون إلى رشدهم.

ومن الامثلة على رد جماح المفرط إلى طريق الحق ما قاله الرسول عليه السلام في شأن المرأة المخزومية التي سرقت فقد ورد أن امرأة مخزومية سرقت ووصل امرها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر بقطع يدها فأزعج ذلك قريشاً لكنهم كانوا يتهيبون مخاطبة النبي عليه السلام والشفاعة لها وقالوا من يجترء أن يكلم رسول الله في أمرها؟ثم اتفقوا أن يكلفوا حب رسول الله وإبن حبه اسامة بن زيد فذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشفع لهذه المخزومية فلما كلمه بشانها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اتشفع في حد من حدود الله ثم قام خطيباً وقال: (انما أهلك الذين قبلكم انهم كانوا اذا سرق فيهم الشريف تركوه واذا سرق فيهم الضعيف اقاموا عليه الحد, وايم الله لو ان فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت

يدها)[٥] ومن الامثلة الاخرى ما صح ان رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل رجلاً على صدقات بني سليم فلما جاء وحوسب, قال: هذا لكم وهذا اهدي لي فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم فهلا جلست في بيت ابيك وامك حتى تأتيك هديتك ان كنت صادقاً؟ ثم خطب النبي صلى الله عليه وسلم فحمد الله واثنى عليه ثم قال: (اما بعد فاني استعمل الرجل منكم على العمل مما ولاني الله, فيأتي فيقول: هذا لكم وهذا هدية اهديت لي افلا جلس في بيت أبيه وامه حتى تأتيه هديته, والله لا يأخذ أحد منكم شيئاً بغير حقه إلا لقي الله يحمل بعيراً له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر ثم رفع يده حتى رؤي بياض ابطه يقول اللهم هل بلغت)[٦] .

ومثال آخر في مقدار حد الخمر, اذ تعلم الصحابة الكرام منهج الرد إلى الوسطية من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالترهيب والعقاب, ومن هنا كان شارب الخمر في زمن النبي عليه السلام يضرب بالجريد والنعال وفي زمن أبي بكر الصديق اربعين جلدة فلما كانت خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه, ودنا الناس من الريف والقرى وكثر شاربوا الخمر استشار عمر الصحابة في أمرهم فقال عبد الرحمن بن عوف أرى أن تجعلها كأخف الحدود, وقال علي بن أبي طالب مقولته المشهورة اذا شرب سكر واذا سكر هذى وإذا هذى افترى وعلى المفتري ثمانين فأخذ عمر بقولهما وكان يجلد ثمانين ليردع الناس عن المضي في غيهم ورداً لهم إلى الطريق الحق والصراط المستقيم[٧] .

وكذلك فعل مع من طلق زوجته بلفظ واحد, فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما كان الطلاق على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وابي بكر وسنتين من خلافة عمر طلاق الثلاث واحدة, فقال عمر: (ان الناس استعجلوا في أمر كانت فيه اناة, فلو أمضينا عليهم, فأمضاه عليهم)[٨] , ويلاحظ هنا الشدة جاءت مقابلة للتهاون ليرد المتهاون إلى جادة الصواب والوسطية.

وهذا مثال آخر القاتل عمداً, حيث جاء رجل إلى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما فقال: يا ابن عباس ارأيت رجلاً قتل مؤمناً؟ قال ابن عباس: جزاؤه جهنم خالداً فيها, فقال يا ابن عباس: ارأيت إن تاب وآمن وعمل صالحاً؟ قال: ثكلته أمه وأنى له التوبة؟ سمعت نبيكم صلى الله عليه وسلم يقول: يجيء المقتول متعلقاً بالقاتل

تشخب اوداجه دماً فيقول: أيْ ربي سل هذا فيم قتلني؟ ثم قال لقد نزلت - ويعني قوله تعالى (ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها) (النساء/٩٣). وما نسخها شيئ[٩] .

وعلل بعض المحققين قول ابن عباس هذا بمنع التوبة لمعرفته المسبقة بأن السائل ليس بقاتل وانما كان ينوي القتل فاراد ابن عباس أن يغلق دونه باب التوبة كي يردعه عن الوقوع في جريمة القتل[١٠], لكن البعض الآخر ذكر ان هذا هو اجتهاد ابن عباس ورأيه.

قد يقال ان ابن عباس رضي الله عنه لاحظ ان القتل حق للعبد, وحقوق العباد لا تغتفر بالتوبة, وانما بارجاعها إلى اصحابها, وأنى للقاتل ارجاع روح المقتول إلى جسده ويقابل رأي ابن عباس رأي آخر لا يمنع من التوبة مستدلين على ذلك بادلة منها حديث الاسرائيلي الذي قتل المائة وذكر النبي صلى الله عليه وسلم ان الله قبل توبته[١١] ومن الممكن أن يقال هذا شرع من قبلنا فهو ليس شرعاً لنا, لكن النبي عليه السلام حكاه باسلوب المتقبل له وهو المتسق مع ابواب التوبة المشرعة.

ولعلي اختم هذا المبحث بالحادثة العظيمة التي نال على أثرها الانصار أوسمة الشرف من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعني ما حصل في حنين فقد نال النبي عليه السلام من مال الفيئ شيئاً كثيراً ففرقه على المسلمين الجدد من قريش - المؤلفة قلوبهم - فأعطاهم عطاء من لا يخشى الفقر, فتهامس الانصار ان رسول الله صلى الله عليه وسلم مال إلى قومه وتركهم, وهم الذين كانوا أهل نصرته في كل المواطن, فوصل الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن طريق أحد كبارهم وهو سعد بن عبادة[١٢] ,فأمر النبي عليه السلام بجمعهم في خيمة من ادم في أحد الشعاب ثم جاءهم فخطبهم خطبته البليغة جاء فيها (ما قالة بلغتني عنكم معشر الانصار, اوجدتم عليّ في لعاعة تألفت بها الناس ووكلتكم إلى ايمانكم, الم اجدكم ضلالاً فهداكم الله بي وكنتم متفرقين فألفكم الله بي وعالة فأغناكم الله بي؟ وكلما قال لهم الرسول شيئاً قالوا: لله ولرسوله المن والفضل, وأجهشوا بالبكاء فلما امطرت عيونهم دمعاً غزيراً حتى أخضلت لحاهم وعرف الرسول عليه السلام ان موعظته

أثرت فيهم بل اخرجتهم عن الوسطية وهذا انحراف لا يريده الرسول عليه السلام عاد بهم مرة أخرى إلى الوسطية حينما قال (أما والله لو شئتم لقلتم فصدقتم وصدقتم, اتيتنا مكذباً فصدقناك ومخذولاً فنصرناك وطريداً فآويناك وعائلاً فواسيناك), وهم في كل ذلك يقولون لله ولرسوله المن والفضل ثم علق على صدورهم أوسمة الشرف حين قال (ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى رحالكم لولا الهجرة لكنت امراً من الانصار ولو سلك الناس وادياً وشعباً لسلكت وادي الانصار وشعبها, الانصار شعار والناس دثار..)[١٣], وما ألطف ما قاله ابن حجر رحمه الله (وقد رتب صلى الله عليه وسلم ما من الله عليهم على يده من النعم ترتيباً بالغاً فبدأ بنعمة الايمان التي لا يوازيها شيئ من أمر الدنيا وثنى بنعمة الألفة وهي أعظم من نعمة المال..)[١٤].

هوامش المبحث الثالث

(١) مسلم ٤/ ٢١٠٨ واللفظ له, البخاري ٢٣٧٤/٥.

(٢) مجمع الزوائد ٢١٣/١٠ وقال رواه أحمد والبزار ورجالهما رجال الصحيح, مصباح الزجاجة ٢٥٨/٤.

(٣) البخاري ٢٨/١, مسلم ١٣٥٨/٣.

(٤) البخاري مع الفتح ٥٠١/٨.

(٥) البخاري ١٣٦٦/٣, مسلم ١٣١٥/٣.

(٦) البخاري ٢٥٥٩/٦, مسلم ١٤٦٣/٣.

(٧) البخاري ٢٤٨٨/٣.

(٨) البخاري مع الفتح ٣٦٣/٩, مسلم ١٠٩٩/٢.

(٩) الترمذي ٢٤٠/٥, النسائي ٢٨٦/٢ أحمد ٢٩٤/١.

(١٠) ابن كثير ٥٣٧/١.

(١١) البخاري ١٢٨٠/٣, مسلم ٢١١٩/٤.

(١٢) سعد بن عبادة الخزرجي - سيد الخزرج, شهد العقبة أحد النقباء الكرماء مات بحوران سنة (١٥) أو (١٦) هـ/ الاصابة ٣٠/٢.

(١٣) بعضه في البخاري ١٣٧٧/٣ وانظر مجمع الزوائد ٢٩/١٠-٣١ وقال رجاله ثقات, ابن أبي شيبة ٣٩٨/٦ و ٤١٦/٧, مسند الشافعي ٢٨٠/١.

(١٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٥٠/٨.

الخاتمـــــــة

من خلال هذا البحث يتضح بما لا مجال للشك فيه:

١- ان الشريعة الاسلامية جاءت تشريعاتها كلها جارية على الوسط الاعدل الذي لا يميل إلى أية جهة من جهتي الافراط أو التفريط, وهذا لا يعني ان أحكامها تقسم الأفعال وتقف في وسطها بل ربما يكون الوسطية بالفعل الاحـــزم وقـــد تكـــون بالفعل الأخف.

٢- واذا ارتعدت الفرائص خوفاً شديداً يوقع الانسان في القنوط أو يكاد فان حـــادي الرجاء يحدوه أن سر على مهلك فلن تهلك وربك أرحم بك منك.

٣- واذا ما انساق بعض الناس مع الهوى والملذات فان ســـائق التخويـــف يـــردع السالكين نحو الهاوية ويدفعهم بأياديه قبل أن يقعوا فيها.

٤- أما اذا سار الناس على الوسط فلا يتعرض لهم بسوق أو حداء وانما ينســـابون انسياب من سار على الطريق الممهد يتساوى عندهم الخوف والرجاء, لا يقفون إلا على اعتاب ابواب الجنة المشرعة لاستقبالهم, جعلنا الله تعالى منهم.

والحمد لله اولاً واخيراً.

المصادر

(١) القرآن الكريم.

(٢) أحمد بن حنبل ت٢٤١-المسند مؤسسة قرطبة-مصر.

(٣) أحمد بن محمد بن سلامة ت٣٣١-شرح معاني الآثار-دار الكتب العلمية-بيروت ط١ ١٣٩٩هـ تحقيق محمد زهري النجار.

(٤) – اسماعيل – د. شعبان محمد – اصول الفقه تاريخه ورجاله دار المريخ – الرياض – ط١ ١٤٠١هـ ١٩٨١م.

(٥) البخاري – محمد بن اسماعيل ت ٢٦٥هـ صحيح البخاري.

(٦) البيهقي – أحمد بن الحسين بن علي ت ٤٨٥هـ سنن البيهقي الكبرى مكتبة دار الباز, مكة المكرمة,١٤١٤هـ ١٩٩٤م, تحقيق محمد عبد القادر عطا.

(٧) ابن تيمية – أحمد عبد الحليم الحراني ت٧٢٨ – مجموع الفتاوى مكتبة ابن تيمية, تحقيق عبد الرحمن محمد قاسم النجدي.

(٨) الترمذي – محمد بن عيسى السلمي ت ٢٧٩ سنن الترمذي دار احياء التراث العربي – بيروت, تحقيق أحمد محمد شاكر.

(٩) الحاكم – محمد بن عبد الله ت ٤٠٥ – المستدرك على الصحيحين دار الكتب العلمية, بيروت,ط١, ١٤١١هـ ١٩٩٠م تحقيق مصطفى عبد القادر عطا.

(١٠) ابن حبان – محمد بن أحمد أبو حاتم التميمي ت٣٥٤, مؤسسة الرسالة, بيروت,ط٢ ١٤١٤هـ ١٩٩٣م تحقيق شعيب الأرناؤطي.

(١١) حبنكة – الشيخ عبد الرحمن حسن, الوسطية في الاسلام, مؤسسة الريان – بيروت ط١, ١٤١٦هـ ١٩٩٦م.

(١٢) ابن حجر – أحمد بن علي بن محمد العسقلاني – ت ٨٥٢هـ الاصابة في تمييز الصحابة – ط١ ١٣٢٨هـ.

(١٣) ابن حجر – فتح الباري بشرح صحيح البخاري – دار المعرفة بيروت.
(١٤) البا حسين د.يعقوب عبد الوهاب, رفع الحرج في الشريعة الاسلامية مكتبة الرشد, ط٤, ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م.
(١٥) الحلبي – علي برهان الدين – انسان العيون – المعروف بالسيرة الحلبية مطبعة الاستقامة, ١٣٨٢هـ ١٩٦٢م.
(١٦) ابن خزيمة – محمد بن اسحاق ت ٣١١هـ المكتب الاسلامي بيروت. ١٣٩٠هـ ١٩٧٠م تحقيق محمد مصطفى الاعظمي.
(١٧) ابو داود – سليمان بن الأشعث السجستاني ٢٧٥ سنن ابي داود, دار الفكر تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد.
(١٨) الزركشي – بدر الدين محمد بن بهادر بن عبد الله ت ٧٩٤هـ. البحر المحيط في اصول الفقه – طبعة وزارة الاوقاف بالكويت,ط١ ١٤٠٩هـ ١٩٨٨م تحريرعدد من الاساتذة.
(١٩) السيوطي – جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر اسباب النزول مع تفسير الجلالين – دار العلم للجميع بيروت.
(٢٠) الشاطبي, ابراهيم بن موسى الغرناطي ت٧٩٠هـ الموافقات دار المعرفة – بيروت – تحقيق الشيخ عبد الله دراز.
(٢١) الشافعي – محمد بن ادريس ت ٢٠٤هـ مسند الشافعي دار الكتب العلمية بيروت.
(٢٢) الشوكاني – محمد بن علي بن محمد ت١٢٥٥هـ فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من التفسير دار احياء التراث العربي, بيروت ط١, ١٤١٨هـ ١٩٩٨م.
(٢٣) الشوكاني – نيل الأوطار,دار الجبل – بيروت ١٩٧٣م.
(٢٤) ابن ابي شيبة – ابو بكر عبد الله بن محمد الكوفي ت ٢٣٥ – مصنف ابن ابي شيبة, مكتبة الرشد, الرياض ط١, ١٤٠٩هـ تحقيق كمال يوسف الحوت.
(٢٥) عبد الرزاق – ابو بكر بن همام الصنعاني ت٢١١هـ المصنف المكتب الاسلامي – بيروت ط٢, ١٤٠٣هـ تحقيق حبيب الله الاعظمي.
(٢٦) العظيم ابادي محمد شمس الحق,عون المعبود دار الكتب العلمية – بيروت ط٢, ١٤١٥هـ
(٢٧) ابي عوانة – يعقوب بن اسماعيل الاسفراييني ت٣١٦, مسند ابي عوانة, دار المعرفة, بيروت, ط١,١٩٩٨م تحقيق – ايمن بن عارف الدمشقي.
(٢٨) الفتوحي – محمد بن أحمد المعروف بابن النجار ت٩٧٢هـ شرح الكوكب المنير,مكتبة العبيكان – الرياض ط٢, ١٤١٨هـ ١٩٩٧م تحقيق د.محمد الجيل, الدكتور نزيه حماد.

(٢٩) الفيروز ابادي – مجد الدين محمد بن يعقوب, القاموس المحيط المؤسسة العربية للطباعة والنشر,بيروت.
(٣٠) الكتاني – أحمد بن أبي بكر بن اسماعيل ت ٨٤٠هـ مصباح الزجاجة, دار العربية, بيروت,ط٢,١٤٠٣هـ تحقيق محمد المنتقى الكشناوي.
(٣١) ابن كثير – ابو الفداء اسماعيل ت ٧٧٤هـ تفسير ابن كثير, دار المفيد بيروت – لبنان.
(٣٢) ابن ماجه – محمد بن يزيد القزويني ت٢٠٧ سنن ابن ماجه دار الفكر – بيروت, تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.
(٣٣) – المبارك فوري – محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم ت١٣٥٣هـ تحفة الاحوذي, دار الكتب العلمية,بيروت.
(٣٤) مسلم – القشيري ابو الحسين بن الحجاج – صحيح مسلم دار احياء التراث العربي, تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.
(٣٥) النسائي – احمد بن شعيب ٣٠٣٥ – المجتبى, مكتبة المطبوعات الاسلامية, ط٢, ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م تحقيق عبد الفتاح ابو رغدة.
(٣٦) الهيثمي – علي بن أبي بكر ت ٨٠٧هـ مجمع الزوائد, دار الريان للتراث, دار الكتاب العربي, القاهرة – بيروت ١٤٠٧هـ.